



مع ابن كثير في تفسيره لنتدبر ما جاء في تفسير قوله تعالى:

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (١)

فقد جاء في تفسير هذه الآية قوله:

والعبادة في اللغة: من الذلة، يُقال: طريقٌ مُعَبَّدٌ، وَبَعِيرٌ مُعَبَّدٌ، أي: مُذَلَّلٌ، وفي الشرع: عبارة عمَّا يجمعُ كمالَ الحَيَّةِ والخضوعِ والخوفِ. وَقُدِّمَ المفعولُ ﴿إِيَّاكَ﴾ وَكُرِّرَ؛ للاهتمامِ والحصرِ، أي: لا نعبُدُ إلاَّ إِيَّاكَ، ولا نتوكَّلُ إلاَّ عليك. وهذا هو كمالُ الطاعة.

والدَّيْنُ كُلُّهُ يرجعُ إلى هذينِ المعنَيَيْنِ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وهذا كما قال بعضُ السُّلَفِ: الفاتحةُ سِرُّ القرآنِ، وسِرُّها هذه الكلمة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فالأوَّلُ تبرُّؤٌ من الشركِ، والثاني تبرُّؤٌ من الحَوْلِ والقوَّةِ، والتفويضُ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ.

وهذا المعنى في غيرِ ما آيةٍ من القرآنِ، كما قال اللهُ تعالى في سورة هود: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٢)، وقال في سورة الملك: ﴿قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ أَمَّنًا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ (١)، وقال في

(١) الفاتحة: ٥.

(٢) هود: ١٢٣.

سورة المزمل: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴾ (٢)، وكذلك في هذه الآية من سورة الفاتحة: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٣).  
ولهذا لا تصح صلاة من لم يقل ذلك وهو قادر عليه.

كما جاء في الصحيحين، عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: « لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب » (٣)، وفي صحيح مسلم، عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « قال الله تعالى: قَسَمْتُ الصَّلَاةَ بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي نَصْفَيْنِ، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (٤) قال الله تعالى: حَمِدَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (٥) قال الله تعالى: أَتَيْتَنِي عَبْدِي. وَإِذَا قَالَ: ﴿ مَلِكِ يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (٦) قال: مَحَدَّنِي عَبْدِي. فَإِذَا قَالَ: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ (٧) قال: هَذَا بَيْنِي وَبَيْنَ عَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ. فَإِذَا قَالَ: ﴿ أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (٨) قال: هَذَا لِعَبْدِي، وَلِعَبْدِي مَا سَأَلَ » (٩).

(١) الملك: من الآية ٢٩.

(٢) المزمل: ٩.

(٣) البخاري: كتاب الأذان، باب وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات، رقم ٧١٤.

(٤) الفاتحة: ٢.

(٥) الفاتحة: ٣.

(٦) الفاتحة: ٤.

(٧) الفاتحة: ٥.

(٨) الفاتحة: ٦، ٧.

(٩) مسلم: كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، رقم ٥٩٨.

ثم قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: والعبادة مقامٌ عظيمٌ يشرفُ به العبدُ؛ لانتسابه إلى جناب الله تعالى. وقد سَمَى اللهُ رسوله ﴿بِعَبْدِهِ﴾ في أشرف مقاماته، فقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾<sup>(١)</sup>، وقال: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾<sup>(٢)</sup>، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾<sup>(٣)</sup>، فسماه عبداً عند إنزال الكتاب عليه، وعند قيامه في الدعوة، وإسرائه به، وأرشده سبحانه إلى القيام بالعبادة في أوقات يضيق فيها صدره من تكذيب المخالفين، حيث يقول جلّ شأنه: ﴿وَلَقَدْ تَعَلَّمَ أَنكَ يُضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ﴾<sup>(٤)</sup> فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿٥﴾ وَأَعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ ﴿٦﴾<sup>(٥)</sup>

أخي المسلم: لقد عرفت أن الدين كله يرجع إلى هذين المعنيين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٦﴾ فهل حاسبت نفسك - في عزمٍ ورُشدٍ - عما يُحقق هذين المعنيين في جميع أمرك؛ لتنعم بالاستقامة في دنياك، والفوز في أخراك؟  
وقد عرفت شرف العبودية، فكُن عبداً لله، ولا تكن عبداً لشيءٍ سواه؛ فقد تَعَسَّ مَنْ كان عبداً لغير الله، واستعِنَ برَبِّك في جميع أمرك، وخُذ بالأسباب دون تواكلٍ أو قُعود؛ لتكون صادقاً في قولك ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ﴿٦﴾، فالله وحده هو الذي يُعبد، والله وحده هو الذي يُستعان به.

(١) الكهف: من الآية ١.

(٢) الجن: من الآية ١٩.

(٣) الإسراء: من الآية ١.

(٤) الحجر: ٩٧ - ٩٩.

ولا تجعل الأمر يلتبس عليك وأنت تُعين غيرك أو يُعينك؛ فأنت تُعين أو تُعان بعون ربك، فاعرف الحق، وأخلص القصد. واعلم أنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.  
اللهم إنا نعوذُ بك من أن نُشركَ بك شيئاً نعلمه، ونسفرك لما لا نعلمه.  
اللهم لا تُكلنا - في أيِّ شأنٍ من شؤوننا - إلى أنفسنا، ولا إلى أحدٍ من خلقت، وأَعنَّا - بفضلِكَ - على ما يُرضيك عَنَّا.

﴿ رَبَّنَا عَلَيكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنبَتْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (١)

﴿١٢﴾